موشيك تمكين *

إسرائيل بوصفها «سوبر سبارطا»؟ التشبيهات التاريخية وسياسات الوهم

ملخص

هذه مقالة نقدية في التاريخ السياسي للخطاب، تُحلّل تشبيه نتنياهو لإسرائيل بـ«سوبر سبارطا» بوصفه مثالًا على الاستخدام السياسي المضلِّل للتشبيهات التاريخية. تجادل الورقة بأن هذا التشبيه لا يهدف إلى تفسير الواقع، بل إلى إعادة تأطيره أيديولوجيًا لتبرير العسكرة، وتطبيع العزلة، وتعزيز سردية الضحية الدائمة. من خلال تفكيك الفجوة بين سبارطا التاريخية و«سبارطا المتخيَّلة»، تبيّن الورقة كيف تتحوّل التشبيهات إلى تقنيات سلطة تعمل على حجب العنف البنيوي وإنتاج وهم أخلاقي جماعي. وتخلص إلى أن التشبيهات التاريخية، حين تُفصل عن سياقها، تصبح أدوات تلاعب تخدم السلطة أكثر مما تخدم الفهم النقدي.

كلمات مفتاحية:

سبارطا؛ الخطاب السياسي؛ الذاكرة التاريخية؛ العسكرة؛ الشعبوية

* موشيك تمكين (Moshik Temkin) هو مؤرخ وأستاذ في معهد الشرق في جامعة هارفارد، ومؤلف كتاب **محاربون ومتمردون** وأتقياء الصادر عن دار جرير للنشر عام ٢٠٢٤.

تتحوّل "سبارطا"، في هذا السرد، إلى حكاية رمزية مُجَمِّلة للدولة: مجتمع محارب صغير، موضَع إعجاب ومخيف في آن، لكنه غير محبوب، يقف وحيدًا في مواجهة عالم معادٍ يسعى إلى تدميره. إنه تشبيه صُمّم ليُلقّن الإسرائيليين كيف ينبغي أن يفهموا موقعهم في التاريخ، وكيف يفسّروا ردود فعل العالم إزاء أفعال إسرائيل: توقّعوا العزلة، توقّعوا الإدانة، لكن واصلوا التمسك بالبطولة والصمود؛ وبالطبع، واصلوا إبقاء نتنياهو في السلطة.

في أيلول ٢٠٢٥، خلال مؤتمر لوزارة المالية عُقد في القدس، صرّح بنيامين نتنياهو بأن إسرائيل تدخل مرحلة من العزلة الدبلوماسية والاقتصادية، وأنها بحاجة إلى التحوّل إلى ما أسماه "سوبر سبارطا" (super Sparta). في ذلك الوقت، كانت قطاعات واسعة من المجتمع الدولي قد انقلبت بالفعل على إسرائيل بسبب أفعالها في غزة وفي أماكن أخرى، رغم استمرار معظم قادة العالم في دعمها، بصورة مباشرة أو ضمنية. غير أنه بعد مرور عامين على "الحرب"، بدأت إسرائيل تفقد دعم حتى كثير من أكثر مؤيديها حماسة. وكان نتنياهو نفسه، إلى جانب مسؤولين إسرائيليين آخرين وعناصر من المؤسسة العسكرية، مطلوبين رسميًا بتهم ارتكاب جرائم حرب أمام محكمة العدل الدولية (ICJ). كما بدأت تتبلور حملات مقاطعة للمؤسسات الثقافية والأكاديمية الإسرائيلية، وهو تطور متوقّع في ضوء سلوك إسرائيل، لكنه مع ذلك دفع العديد من الإسرائيليين إلى نوبات من الاستعلاء الأخلاقي والشعور بالاستحقاق. وما كان نتنياهو يلمّح إليه من خلال تشبيه "سبارطا" هو أن إسرائيل محاصَرة من جميع الجهات، وأنه بدل الاكتفاء بالاحتجاج على هذا الواقع، يتعيّن عليها التكيّف مع العزلة عبر الجمع بين الاكتفاء الذاتي، والاعتماد على النفس، وتعزيز الإنتاج العسكري المحلي من أجل البقاء. وقال نتنياهو: "لا خيار أمامنا"، مضيفًا: "على الأقل في السنوات المقبلة"، في ظل مواجهة إسرائيل لضغوط دولية متزايدة، وحظر على توريد السلاح، وتداعيات ما جرى في غزة.

على مدى خمسة عقود من الانخراط السام لبنيامين نتنياهو في الحياة العامة، تبيّن لأي مراقب يقظ أن ما يقوله لا ينبغي أبدًا أن يُؤخذ على ظاهره. فهو نجل أحد أشهر مؤرخي إسرائيل، بن تسيون نتنياهو، المعروف بأعماله المطوّلة حول تاريخ الاسترداد الإسباني[١] (Spanish Reconquista) وبمواقفه القومية المتطرفة (ultra-nationalist views). أما نتنياهو الابن، فيُقدَّم هو الآخر بوصفه "مؤرخًا"، وإن كان من طراز سيّئ على نحو فريد، إذ دأب على تقديم سرديات تاريخية تنقيحية، وأحيانًا مختلَقة صراحة، في خدمة أجندته السياسية. من أكثر الأمثلة فجاجةً، وإن كانت نموذجية، على ذلك ما ورد في خطابه عام ٢٠١٥ أمام المؤتمر الصهيوني العالمي في القدس، حين لامس حدود إنكار الهولوكوست عبر ادعائه، زورًا، أن الديكتاتور النازي أدولف هتلر لم يكن ينوي قتل اليهود على نطاق واسع، وأنه لم يتبنَّ فكرة "الحل النهائي"[٢] إلا بعد أن استلهمها من مفتي القدس الحاج أمين الحسيني. والحقيقة أن الإبادة النازية لليهود كانت قد بدأت بالفعل وبوتيرة واسعة عام ١٩٤١، أي قبل اللقاء الذي جمع الرجلين. يندرج ذلك في سياق محاولات نتنياهو الطويلة الأمد لإعادة تأهيل وتمجيد فاشيين ومعادين للسامية فعليين في أوروبا وفي أنحاء مختلفة من العالم بوصفهم "أصدقاء لإسرائيل"، في مقابل تصوير الفلسطينيين وقياداتهم على أنهم "النازيون الحقيقيون". أما تشبيهه المفضّل، فهو ذاك الذي

١ حركة تاريخية طويلة امتدت بين القرنين الثامن والخامس عشر، سعت فيها الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى استعادة الأراضي التي خضعت للحكم الإسلامي، وانتهت بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢، وشكّلت أساسًا لبناء الدولة الإسبانية الحديثة وهويتها الدينية والسياسية- المترجم.

٢ سياسة إبادة ممنهجة اعتمدها النظام النازي خلال الحرب العالمية الثانية، هدفت إلى القضاء الكامل على يهود أوروبا، عبر القتل الجماعي، ومعسكرات الإبادة، والترحيل القسري، والعمل القاتل، وأدّت إلى مقتل نحو ستة ملايين يهودي بوصفها جريمة إبادة جماعية- المترجم.

■ دبابات إسرائيلية في مهمة إبادة بغزة. (جيتي ايماجز)

يقيمه بين إيران وألمانيا النازية؛ إذ دأب مرارًا على مقارنة أي انفتاح دبلوماسي غربي على إيران، بما في ذلك الاتفاق النووي الأميركي-الإيراني لعام ٢٠١٥، بسياسة "الاسترضاء" تجاه هتلر عام ١٩٣٨. غير أن استدعاءه لـ [فكرة] سبارطا كان يحمل دلالة أكثر تحديدًا. فلم يكن الأمر مجرد استخدام، أو بالأحرى إساءة استخدام، للماضي من أجل تأطير الحاضر بما يخدم تبرير سياساته، وتعبئة المشاعر، وحماية موقعه السياسي، ووصم المعارضين، (وهي ممارسات دأب عليها)، بل كان ذلك في صيغة تشبيه تاريخي مكتمل الأركان. فـ"سبارطا"، في هذا السرد، تتحوّل إلى حكاية رمزية مُجَمِّلة للدولة: مجتمع محارب صغير، موضَع إعجاب ومخيف في آن، لكنه غير محبوب، يقف وحيدًا في مواجهة عالم معادٍ يسعى إلى تدميره. إنه تشبيه صُمّم ليُلقّن الإسرائيليين كيف ينبغي أن يفهموا موقعهم في التاريخ، وكيف يفسّروا ردود فعل العالم إزاء أفعال إسرائيل: توقّعوا العزلة، توقّعوا الإدانة، لكن واصلوا التمسك بالبطولة والصمود؛ وبالطبع، واصلوا إبقاء نتنياهو في السلطة.

من الواضح أن ما قاله نتنياهو لا يمتّ بصلة تُذكر إلى سبارطا التاريخية الفعلية. فسبارطا، إحدى أهم المدن اليونانية في العصور القديمة، كانت بالفعل مجتمعًا منغلقًا ومحافظًا، وتميّزت بثقافة سياسية غريبة الأطوار على نحو هوسي، وعسكرة مفرطة. وفي الثقافة الشعبية، وكذلك لدى من يعرفون القليل أو لا يعرفون شيئًا عن تاريخ اليونان القديمة، تشتهر سبارطا ببراعتها العسكرية وبسالتها، كما صُوّرت في أفلام مثل "٣٠٠" (٢٠٠٦). غير أن سبارطا الحقيقية تختلف كثيرًا عن "سبارطا المجازية" التي استحضرها نتنياهو في خطابه. ومع شيء من الجهد، يمكن العثور على بعض أوجه الشبه بينها وبين إسرائيل المعاصرة، لكن أياً من هذه الأوجه ليس

وعليه، فإن إحالة نتنياهو إلى سبارطا لا تعمل إلا عبر تجريدها من سياقها التاريخي الفعلي وإعادة توظيفها بما يخدم سردية سياسية معاصرة. وهذا هو المقصود تحديدًا. فاستعارة سبارطا لا تُضيء الواقع الإسرائيلي بأي معنى تحليلي حقيقي، بل تعيد تأطيره على نحو يخدم رئيس وزراء متشبثًا بالسلطة. وعلى نحو أوسع، تتيح هذه الاستعارة لدولة تُكرّس التفوّق اليهودي في القانون والممارسة أن تتخيّل نفسها مجتمعًا محاربًا مُساء فهمه، نبيلًا ومحاصَرًا.

مما أراد نتنياهو إيصاله. فكما هي الحال في إسرائيل اليوم، لم تكن سبارطا القديمة ديمقراطية ليبرالية. لكنها، بخلاف إسرائيل، لم تدّعِ يومًا أنها كذلك، ولم تمتلك أيًّا من المؤسسات التي تمنح الدولة الإثنية الإسرائيلية مظهرها الليبرالي-الديمقراطي الخارجي.

على نحوٍ ما يشبه إسرائيل اليوم، كانت سبارطا تُحكم بنظام أوليغارشي، وتدار من قبل نخبة ضيقة نادرًا ما كانت سلطتها موضع تحدٍّ. وبطريقة قد تذكّر بعضهم بالسمات الثيوقراطية في إسرائيل المعاصرة، مثل الاحتكام إلى القوانين الحاخامية الأرثوذكسية (الهلاخاه) لتنظيم حياة اليهود وفرض الأعياد والمناسبات التي يُلزَم جميع السكان بالاحتفال بها، كان يُقال إن قوانين سبارطا منقوشة عمليًا في الصخر، وموروثة عبر أجيال متعاقبة على مدى قرون.

وكما هو الحال في إسرائيل (على الأقل بالنسبة لمعظم اليهود الإسرائيليين)، كان الفتيان الإسبرطيون يُربَّون أساسًا ليكونوا جنودًا، وكانت بقية عناصر المجتمع كلّها مسخّرة لخدمة هذا المثال العسكري وترسيخ هيمنته. ومثل إسرائيل إلى حدّ ما، أبقت سبارطا على جماعة سكانية واسعة (الهيليوت) في حالة إخضاع دائم وقمع وحشي. وكإسرائيل أيضًا، لم تكن سبارطا مكانًا متعاطفًا مع من يفتقرون إلى الثروة أو النفوذ أو المكانة أو الصحة الجسدية. مع ذلك، لم يكن بين سبارطا وإسرائيل سوى القليل من القواسم المشتركة، وكان ديماغوجي مراوغ وفاسد مثل نتنياهو ليثير نفور الحسّيات الإسبرطية بعمق. فالإسبرطيون، على سبيل المثال، لم يشيّدوا سرديات عن ضحية دائمة لتبرير الفظائع والتنصّل من المسؤولية الفردية. وربما الأهم من ذلك أن سبارطا لم تدخل صراعات كبرى إلا ضمن تحالفات، مدفوعة أساسًا بالخوف من قوى خارجية؛ أولًا غزو فارس للأراضي اليونانية (كما صُوِّر بشكل خيالي في فيلم "٣٠٠"، وبصورة أكثر جدّية لدى هيرودوت في "التواريخ")، ولاحقًا، كما يروي ثيوسيديدس (Thucydides) في "تاريخ الحرب البيلوبونيسية" (Peloponnesian War)، التهديد المتصوَّر للهيمنة الإمبراطورية الأثينية.

وعليه، فإن إحالة نتنياهو إلى سبارطا لا تعمل إلا عبر تجريدها من سياقها التاريخي الفعلي وإعادة توظيفها بما يخدم سردية سياسية معاصرة. وهذا هو المقصود تحديدًا. فاستعارة سبارطا لا تُضيء الواقع الإسرائيلي بأي معنى تحليلي حقيقي، بل تعيد تأطيره على نحو يخدم رئيس وزراء متشبثًا بالسلطة. وعلى نحو أوسع، تتيح هذه الاستعارة لدولة تُكرّس التفوّق اليهودي في القانون والممارسة أن تتخيّل نفسها مجتمعًا محاربًا مُساء فهمه، نبيلًا ومحاصَرًا. كما تمكّن قطاعات واسعة من الجمهور الإسرائيلي (على الأقل أولئك الذين ما زالوا يصغون إلى ديماغوجية نتنياهو) من العيش داخل وهمٍ بالكرامة والبسالة، في الوقت الذي يدعمون فيه، أو يتجاهلون، أو ينكرون، أو يحتفلون باستمرار عملية التنكيل العنيف بالفلسطينيين، وأن يروا أنفسهم في آنٍ واحد أصحاب قوة مطلقة وضحايا دائمين.

إن تشبيه سبارطا ليس سوى أحدث تجلٍّ لنمط متكرر، لكنه في الوقت نفسه يشكّل خروجًا نسبيًا عن المألوف في الثقافة السياسية الإسرائيلية، التي تقوم على بنية كثيفة من الإحالات التاريخية المستمدّة من التاريخ اليهودي أو المرتبطة به بشكل أو بآخر؛ بعضها قديم، وبعضها حديث، ومعظمها بالغ التناقض الزمني. وتُقدَّم بوصفها أدوات للفهم الذاتي، لكنها في الواقع وسائل للإقناع السياسي،

■ جندي إسرائيلي يتكئ على سبطانة دبابة خلال حرب الإبادة على غزة. (جيتي ايماجز)

وغالبًا دعاية مباشرة. وعليه، فالسؤال الصحيح ليس ما إذا كانت هذه التشبيهات "دقيقة" (فهي نادرًا ما تكون كذلك) بل ما الوظيفة التي تؤديها. ما أنماط السلوك السياسي، وأشكال التعليل الأخلاقي، والمشاعر المدنية التي تتيحها أو تشجّعها؟ وأيّ حقائق أو وقائع تعمل في المقابل على حجبها وإخفائها؟

في إسرائيل، تُستمدّ بعض أقدم التشبيهات وأكثرها شيوعًا من عصورٍ سحيقة، لكنها أقرب جغرافيًا ورمزيًا من سبارطا، التي لا تنتمي إلى التاريخ اليهودي: متسادا (حيث خاض آخر مقاتلي الثورة اليهودية المحكوم عليها بالفشل ضد الإمبراطورية الرومانية معركتهم الأخيرة)، والمكابيون (المتمرّدون الدينيون اليهود ضد الحكّام الهلنستيين في يهودا)، وداود وجالوت؛ حيث تشكّل هذه السرديات عماد الأسطورة الوطنية الإسرائيلية، لكنها تؤدي أيضًا، على نحوٍ متواصل، وظيفة تشبيهية مع الحاضر. يتعلّم تلاميذ المدارس في إسرائيل هذه القصص لا بوصفها حكايات بعيدة تعود إلى مجتمعات اندثرت منذ زمن طويل، لها منطقها الداخلي الخاص ولا تكاد تمتّ بصلة تُذكر إلى إسرائيل (أو فلسطين) القائمة اليوم، بل باعتبارها حلقات في سردية متواصلة تتوّج بصورة طبيعية في الدولة الصهيونية الحديثة.

والغرض السياسي من ذلك واضح: إذ تُضفي هذه التشبيهات قداسة على الحاضر عبر إسقاطه رجعيًا على قصص تأسيسية من عصور أسطورية موغلة في القدم. وهي تُطَبِّع وجود دولة قومية مُعسكرة من خلال إرسائها في بطولة أزلية وصراع وجودي دائم. وتتمحور الفكرة المركزية دائمًا حول كون إسرائيل الطرف الأضعف الذي يدافع عن نفسه في مواجهة عملاقٍ متوحش. وفي كل جيل، كما يتعلّم الأطفال، يظهر عدو جديد يسعى إلى تدميرنا.

مجتمعةً، لا تعمل هذه التشبيهات بوصفها أدوات تفسيرية أو مواد تعليمية، بل بوصفها تقنيات سياسية. فهي تُبسّط الواقع، وتشوّهه، وتحوّله إلى أسطورة. وتخلط بين الواقع وسلسلة من الحكايات البطولية أو المأساوية التي تقود دائمًا إلى النتيجة ذاتها: إسرائيل تدافع عن نفسها على الدوام؛ إسرائيل هي الضحية على الدوام؛ وإسرائيل مُحِقّة على الدوام. وبالطبع، لا يقتصر هذا النمط على إسرائيل وحدها. فطلاب المدارس في مختلف أنحاء العالم، وفي معظم الدول تقريبًا، يتعلّمون التاريخ بهذه الطريقة، مع التركيز على الأبطال القوميين، ومن خلال رؤية أسطورية للماضي يُراد لها تربويًا أن تُنتج رعايا مخلصين للدولة القومية. ولم يبدأ تدريس التاريخ

مع ذلك، وحتى ضمن هذا الإطار الأوسع، تبقى إسرائيل حالة فريدة؛ إذ إن سياستها الحديثة متشابكة على نحوٍ حميمي مع ما هو في جوهره أساطير عن ماضٍ سحيق. ويعيش ملايين البشر أو يموتون (أو ينخرطون في سجالات إلكترونية عنيفة) بسبب العجز عن التمييز، أو الرفض الصريح له، بين الأسطورة والتاريخ، حتى لدى أكثر فئات الجمهور علمانيةً وليبرالية.

في مدارس الدول الحديثة بوصفه محاولة لحثّ الأطفال القابلين للتأثر على "التفكير النقدي" في الماضي (كما يحبّ ممارسو المهنة اليوم أن يقولوا لطلابهم) بل بوصفه وسيلة لاستيعاب السردية المهيمنة لأصول الأمة. وهذا صحيح في فرنسا والصين والولايات المتحدة تمامًا كما هو الحال في إسرائيل. تتحرّك جميع الثقافات السياسية الوطنية، إلى حدّ كبير، تحت وطأة القوة الطاغية لهذه السرديات المُلقَّنة، وبفعل النفوذ العميق الذي تمارسه داخل مجتمعاتها. فالعلاقات المعقّدة القائمة اليوم، على سبيل المثال، بين اليابان والصين، أو بين الهند وباكستان، لا يمكن فهمها دون إدراك الكيفية العميقة التي تُشكِّل بها الذاكرة التاريخية ميول هذه الدول الجيوسياسية وعمليات صنع القرار لديها. مع ذلك، وحتى ضمن هذا الإطار الأوسع، تبقى إسرائيل حالة فريدة؛ إذ إن سياستها الحديثة متشابكة على نحوٍ حميمي مع ما هو في جوهره أساطير عن ماضٍ سحيق. ويعيش ملايين البشر أو يموتون (أو ينخرطون في سجالات إلكترونية عنيفة) بسبب العجز عن التمييز، أو الرفض الصريح له، بين الأسطورة والتاريخ، حتى لدى أكثر فئات الجمهور علمانيةً وليبرالية.

غير أنّ فهم استخدامات مثل هذه التشبيهات في المجتمعات القومية (وليس في إسرائيل وحدها) يقتضي توسيع زاوية النظر، بحيث لا نكتفي بأسبابها السطحية، بل ننفذ إلى أسبابها البنيوية الأعمق. فالتشبيهات التاريخية ليست مجرد خيارات سياسية، بل هي أيضًا خيارات تجارية. فأنماط معيّنة من السياسة (وسياسيون بعينهم) لا تنجح لأن ما تقدّمه للجمهور جيّد بالضرورة، بل بسبب حوافز إعلامية محدّدة. ومن خلال الإعلام، سواء التقليدي أو الرقمي، يتواصل السياسيون مع الجمهور ومع قواعدهم على وجه الخصوص. وعليه، ينبغي فهم التشبيهات التاريخية لا باعتبارها خطابًا سياسيًا فحسب (سلبًا أو إيجابًا)، بل أيضًا، وبصورة غير منفصلة، بوصفها ظواهر محكومة بمنطق السوق. فكلما كان التشبيه أكثر "قابلية للبيع" (من حيث عدد النقرات، وحجم التغطية)، ازداد ترويجه إعلاميًا، وازداد إقبال السياسيين على توظيفه.

يمكننا، على هذا الأساس، أن نفهم لماذا يلجأ السياسيون والنخب إلى التواصل أو "التثقيف" عبر التشبيهات التاريخية. لكن يبقى السؤال: لماذا تلقى هذه التشبيهات رواجًا لدى وسائل الإعلام، ولدى قطاعات من الجمهور؟ ثمّة أسباب وجيهة لكون التشبيهات التاريخية تُستدعى بهذه الكثافة، ولبروز قدرة بعضها على "إصابة الهدف". فهي غالبًا ما تقدّم شكلًا مزدوجًا من الطمأنينة الزائفة: وهم مفاده أن النظر إلى الوراء يتيح لنا معرفة ما سيحدث لاحقًا، ووهم أن النتيجة ستكون مرغوبة، لأننا لا نختار التشبيهات لاختبار فهمنا، بل لتأكيد ما نؤمن به مسبقًا (أو ما نأمل أن يؤمن به الآخرون). صحيح أن كل تفكير تاريخي متجذّر في الحاضر، ولا مفرّ من ذلك، لكن التشبيهات المتداولة في المجال العام ليست، في كثير من الأحيان، أكثر من تصريحات سياسية مُقنَّعة. فهي تنبع من تفكير رغائبي بشأن النتائج، وتستند إلى وهم مفاده أن التاريخ يمكن تطويعه ليُنبئ بالمستقبل. واستدعاء نتنياهو لسبارطا، الذي يعد بخروج الدولة منتصرة من محنها وحروبها، ليس سوى مثال واحد من بين أمثلة كثيرة.

لا تتجلّى هذه التشوّهات بوضوحٍ أشدّ مما تتجلّى في التشبيهات المستمدّة من الحرب العالمية الثانية،

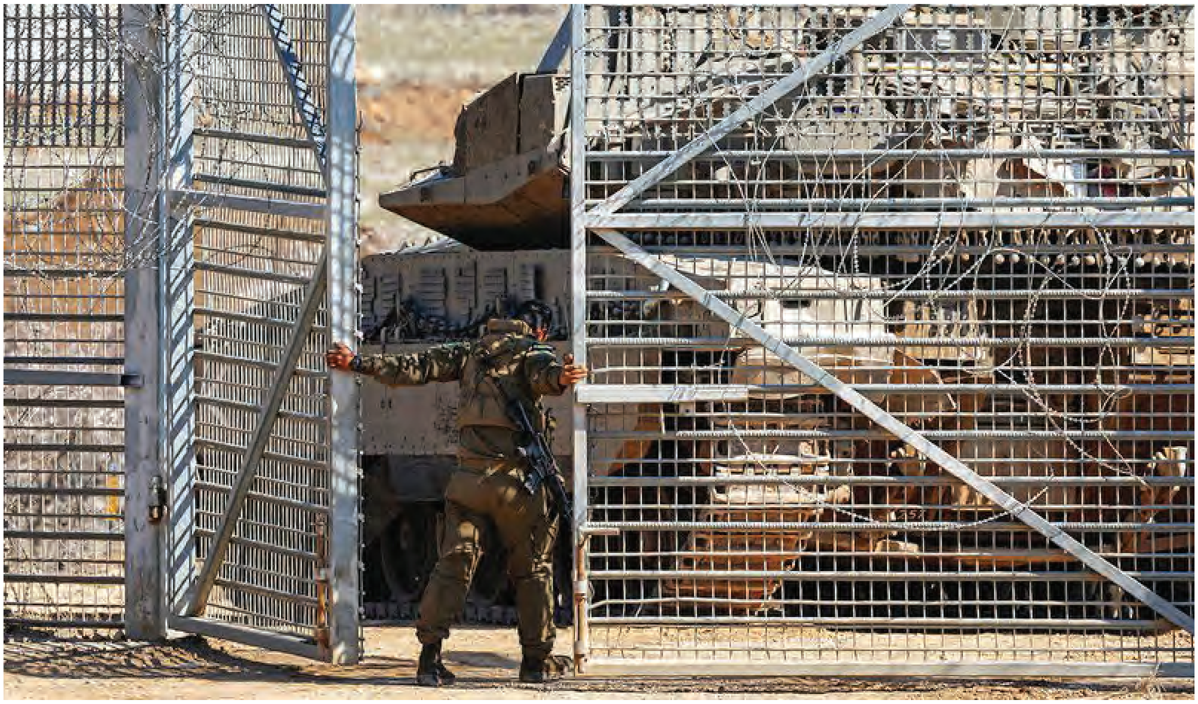

■ الجدران والأسيجة والجدران: اسبارتا في عزلتها. (أ.ف.ب)

التي تمتلك قوة خاصة، ليس في إسرائيل وحدها، بل في دولٍ كثيرة لكن مع فارقٍ جوهري هو أن تلك الدول الأخرى خاضت الحرب، فإما انتصرت فيها أو هُزمت، أو تعرّضت لدمارٍ واسع بسببها. وهنا تزداد الاستخدامات السياسية لهذه التشبيهات حدّة، وتتعمّق شحنتها العاطفية.

ترتبط الإبادة النازية ليهود أوروبا بتأسيس دولة إسرائيل، بطبيعة الحال، ويُخلَّد الهولوكوست في إسرائيل كما يُستَخدم بوصفه مسوّغًا تأسيسيًا ليس لوجود الدولة فحسب، بل أيضًا لأفعالها في الحاضر. وخارج إسرائيل، ولا سيما في أوروبا الغربية، يستند دعم الدولة—حتى في مواجهة أكثر أفعالها فظاعة—إلى شعورٍ مستمر بالذنب إزاء الهولوكوست، رغم أن إسرائيل نفسها ليست ضحية الهولوكوست، ورغم أن إسرائيل لا تُعادِل يهود أوروبا قبل عام ١٩٣٩ (ولا يهود أوروبا اليوم، تجدر الإشارة). كما ينبغي القول إن عددًا من السياسيين ووسائل الإعلام الأوروبية، ولا سيما أولئك الذين يروّجون للإسلاموفوبيا ولسياسات معادية للهجرة، لا يدعمون ما تقوم به إسرائيل بدافع الذنب (وهو شعور هم عاجزون أصلًا عن الإحساس به) بل بدافع التماهي.

يقوم التشبيه المستخدم هنا على افتراض أن إسرائيل تتعرّض لهجوم (من حماس، أو حزب الله، أو إيران، أو حتى "اليسار العالمي") بالطريقة ذاتها التي تعرّض بها يهود أوروبا لهجوم النازيين. غير أن حقيقة أن أشدّ داعمي إسرائيل حماسةً في أوروبا وخارجها هم، في كثير من الأحيان، الورثة الروحيون والسياسيون للفاشيين ومعادي السامية الذين قتلوا، قبل جيلين فقط، ملايين اليهود، هي مفارقة تغيب بالكامل عن وعي معظم الجمهور الإسرائيلي، لكنها في الوقت ذاته تُبرز مدى التلاعب والتشويه الكامنَين في هذا التشبيه منذ الأساس. تدمج هذه السردية الصدمة التاريخية بالسياسة المعاصرة، وتمنح تبرئة أخلاقية شبه مطلقة لكل ما تفعله إسرائيل. غير أن التشبيه هنا مقلوب رأسًا على عقب. ففي الواقع العملي، تتصرّف إسرائيل بوصفها دولة قومية متطرّفة تضطهد وتقتل أقلية سكانية خاضعة لسيطرتها، بينما تُصرّ في الوقت ذاته على براءتها وعلى هشاشتها الدائمة. إن الجمع بين شعورٍ بالتفوّق الأخلاقي وإحساسٍ دائم بالاضطهاد السياسي هو من أخطر التركيبات في السياسة، كما كان ينبغي للقرن العشرين أن يعلّمنا.

ومـن بين التشـبيهات الحديثـة الأكثـر إسـاءة وعبثيـة، المسـتمدّة مـن الحـرب العالميـة الثانيـة، يبرز تشـبيه لا يسـتند إلى تجربـة يهـود أوروبـا، بـل إلى مسرح الحـرب في المحيط الهـادئ (وهـو فصـل يـكاد يكـون مجهـولًا لدى معظـم الجمهـور الإسرائـيلي): التشـبيه الـذي يقـارن بين "حمـاس" واليابـان الإمبراطوريـة، ويقترح أن سـكان غزة يجـب أن يخضعـوا لعمليـة "نـزع تطـرّف" كمـا خضـع لهـا اليابانيـون بعـد هزيمتهـم النهائيـة عـام ١٩٤٥. يقـوم هـذا الطـرح في جوهـره على افتراض أن حمـاس تمثّـل، بطريقـة مـا، إرادة سـكان غـزة العـاديين، الذيـن يُصـوَّرون على أنهـم "مُتطرّفـون" منـذ الطفولـة مـن دون سـبب وجيـه، على نحـو يشبه—بحسـب الزعم—مـا كان عليـه اليابانيـون في تلـك المرحلـة. غير أن هـذا الادعـاء ينهـار فـور إخضاعـه لأي فحـص جـاد. فغـزة رقعـة جغرافيـة صـغيرة شـديدة الاكتظـاظ، خاضعـة لحصـار إسرائـيلي-مصري طويـل الأمـد، وقـد جـرى تحويلهـا اليـوم إلى أنقـاض بفعـل قـوة عسـكرية غير مسـبوقة. أمـا اليابـان الإمبراطوريـة، فكانـت على النقيـض تمامًـا: إمبراطوريـة توسّـعية هائلـة، وقـوة اسـتعمارية وحشـية، قامـت على عقيـدة تفـوّق عرقي-ثقـافي، وكانـت مسـؤولة عـن فظائـع واسـعة النطـاق في آسـيا والمحيط الهـادئ. وإذا كان ثمـة أي مجـال لمقارنـةٍ ذات معنـى هنا—مـع ضرورة توخّـي أقصى درجـات الحذر—فإنهـا تـشير في الاتجـاه المعاكـس تمامًـا. فإسرائيـل هـي التـي تُشـبه، إلى حـدّ مـا، اليابـان في ثلاثينيـات وأوائـل أربعينيـات القـرن العشريـن: مجتمـع شـديد العسـكرة، مهـووس بأمجـاد ماضيـة، غـارق في سرديـات الضحيـة وأوهـام الاضطهـاد، يبرّر أكثـر سـلوكياته عنفًـا بوصفهـا "دفاعًـا عـن النفـس"، ويرهـب محيطـه، ويفـرض هيمنتـه على ملايين الـبشر، بينمـا يعمـل في الداخـل كـ"شـبه ديمقراطيـة" في أحسـن الأحـوال.

حتـى هـذه المرحلـة، انصـبّ تركيزنـا على التشـبيهات التاريخيـة بوصفهـا أدوات تلاعـب، واسـتخدامات وإسـاءات للتاريـخ، تُسـخَّر في الغالـب لخدمـة سرديـات قوميـة، وتُـروَّج عبر إعلامٍ واعٍ ومربـح. غير أنّ مـن المهـم التطـرّق إلى الوجـه الآخـر لهـذه الظاهـرة. فالتشـبيهات التاريخيـة تمتلـك أيضًـا وظيفـة ديمقراطيـة، يمكـن للجمهـور أن يوظّفهـا كأدوات في مواجهـة إسـاءة اسـتخدام السـلطة. مـن الطبيعـي (وأحيانًـا الضروري، بـل وحتـى النبيـل) اسـتدعاء تشـبيهات تاريخيـة عنـد اتخـاذ مواقـف أخلاقيـة وسياسـية إزاء العالـم الـذي نعيـش فيـه. فعندمـا يكـون قائـد وطنـي فاسـدًا على نحـوٍ فاضـح، أو اسـتبداديًا، أو جشـعًا، فإننـا نلجـأ غريزيًـا إلى السـوابق التاريخيـة، سـواء مـن تاريخنـا الوطنـي أو مـن تجـارب مجتمعـات أخـرى. وحين تهاجـم السـلطات المسـلحة جماعـاتٍ أقلّويـة، أو تطلـق الدولـة العنـف ضـد متظاهريـن يطالبـون بالعدالـة، يمكـن للتـوازي التاريخـي أن يسـاعدنا على التعـبير عـن الغضـب الجماعـي، وعلى وضـع اللحظـة الراهنـة ضمـن مسـارٍ أطـول مـن علاقـات القـوة والمقاومـة. في مثـل هذه السـياقات، لا تكـون التشـبيهات مجـرّد تماريـن أكاديمية أو وسـائل تلاعـب، بـل محـاولات لتحريـك الضـمير العام، ونقـل الإحسـاس بالخطـر، والتنبيـه إلى أن الأزمـة الراهنة تحمـل تشـابهًا مقلقًـا مـع مظالـم سـابقة اسـتوجبت الفعـل. لهـذا، على سـبيل المثـال، فـإن الطريقـة التـي أُطلقـت بهـا يـد وكالـة الهجـرة والجمـارك الأميركيـة (ICE)، وهـي وكالـة فدراليـة تأسسـت عـام ٢٠٠٣ في إطـار "الحـرب على الإرهـاب" التـي أعلنهـا جـورج دبليو بـوش، ضـدّ جماعـات المهاجريـن في الولايـات المتحـدة في السـنوات الأخيرة (بمـن فيهـم مواطنـون أميركيـون)، ألهمـت تشـبيهات تاريخيـة بالفاشـية الأوروبيـة، أو بجماعـة كـو كلوكـس كلان (Ku Klux Klan)، أو بحـملات المطـاردة المكارثيـة (McCarthy-era witch hunts-periods)؛ وهـي فترات شـهدت ملاحقـة الأقليات، أو مـن وُصِفـوا بالمخـرّبين، وتجريمهـم مـن السـلطات.

لا يمكـن لمثـل هـذه التشـبيهات أن تكـون دقيقـة على نحـوٍ كامـل أبـدًا (تمامًـا كمـا تختلـف الإبـادات الجماعية عـن بعضهـا، وكمـا يمكـن للفاشـيين أن يختلفـوا فيمـا بينهـم مـع بقائهـم فاشـيين). فـكل حـدث تاريخـي يتشـكّل ضمـن سـياقه الخـاص، وظروفـه الطارئـة، وخصوصياتـه غير القابلـة للاختـزال. وبوجـهٍ عـام، يعلّـم المؤرخـون الجـادّون أن التاريـخ لا "يعيـد نفسـه" فعليًـا؛ فهـو يكـون مختلفًـا دائمًـا، حتـى عندمـا تُذكّرنـا أحـداث الحـاضر بلحظـات مـن الماضي—مـع أن الوقائـع الراهنـة هـي، في نهايـة المطـاف، نتـاج للمـاضي. لكـن الدقّـة ليسـت هـي الغايـة مـن هـذه التشـبيهات. فقوتهـا تكمـن في قدرتهـا على توجيـه انتباهنـا الأخلاقـي نحـو أحـداثٍ ماضيـة تتردّد أصداؤهـا بقـوة مـع معـضلات الحـاضر.

مـن المهـم، في الوقـت نفسـه، التمييـز بين التشـبيهات